

الحساسيات القومية والسياسية أواخر العهد العثماني

نقولا زيادة

(1)

كانت الدولة العثمانية، في أيام عزها وقوتها، وخاصة في القرن السادس عشر، تقلق دول أوروبا وتزعجها بل وتخيفها. لكن منذ العقود الأولى من القرن السابع عشر بدأ السوس ينخر في عظامها، فاختلت إدارتها واضطرب حبل الأمن في أجزاء متعددة منها. وكانت الدول الأوروبية قد تقدمت علمياً وصناعياً وعسكرياً، فأصبحت الدولة العثمانية تقلق منها وتزعج، بل وتخافها. والدول التي كانت تقف للدولة العثمانية بالمرصاد هي بريطانيا وفرنسا وروسيا وبروسيا (أصبحت الدولة الألمانية لما اتحدت مع بقية الدويلات الألمانية سنة 1871). وكل منها تريد أن تنهش من جسم الامبراطورية قطعة، ولولا تنافس الدول فيما بينها ودفعها الواحدة الأخرى عن ذلك، لكانت الدولة العثمانية ضاغت حتى قبل سنة 1918 (نهاية الحرب العالمية الأولى).

على أنه يجب أن نذكر أيضاً أن أجزاء من الدولة العثمانية، بما في ذلك تركية نفسها، واسطنبول على الأخص، كانت قد تعرضت في القرن التاسع عشر، للغرب: عن طريق من انتقل من مواطنيها إلى دول الغرب نفسها، ومن جاء من الغرب إلى أجزائها، لكثير من الآراء التي كان الغرب قد طوّرها ومحصنها واختبرها، وإلى كثير من تجاربه السياسية والفكرية.

فقد عرفت اسطنبول مدارس عليا للطب والعلوم والإدارة والتربية،

وانشئت في مصر مدارس للطب والهندسة وللحقوق (الفرنسية)، وفتحت الإرساليات الأجنبية المختلفة (كاثوليكية وانجيلية) مدارس في فلسطين ولبنان وسورية، وانشئت معها معاهد للتعليم العالي في بيروت (الكلية السورية الإنجيلية، الجامعة الأميركية فيما بعد 1866، وكلية القديس يوسف، جامعة القديس فيما بعد 1875)، وانشئت صحف يومية كبرى في مصر (الأهرام والمقطم) وفي بيروت، وصدرت مجلات علمية متعددة مختلفة البحوث والدراسات.

كل هذا أدى إلى قيام وضع جديد في أنحاء الامبراطورية في شرقي البحر المتوسط. كانت فيه الآراء الجديدة تدخل إلى عقول عدد لا يستهان به من أهل القلم والفكر والسياسة. ولسنا ننوي أن نتحدث عن هذه الآراء الجديدة بالتفصيل، ولكن لا بد من الإشارة إلى بعضها مما له علاقة بالموضوع الذي نود التحدث عنه هنا، وهو الحركات القومية والوطنية التي عرفتھا المنطقة بين سنتي 1876 (سنة اعتلاء عبد الحميد الثاني عشر السلطنة) و1925 (لما ثبت مصطفى كمال قواعد تركية الحديثة).

(2)

ونحن إذا استعرضنا هذه الأمور الأساسية وقعنا على الأمور التالية:

1 - إن الدعوة التي أطلقتها الثورة الفرنسية وصلت نيرانها إلى الكثيرين من أبناء المنطقة عن طريق الترجمات والرحلات والصحف. فأصبح الكثيرون ينادون بالحاجة إلى الحرية والمساواة والأخاء. والأدب العربي الذي وضع في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تغنى فيه كتابه بهذه الأمور، إما بأسلوب رومانسي وإما بأسلوب مدرّس موضح.

2 - إن المدارس التي عرفتھا المنطقة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الأجنبي منها والوطني، أدخلت في برامجها تدريس العلوم البحتة والتطبيقية، وكان من نتيجة ذلك أن دخلت روح علمية جديدة إلى عقول من أتيح لهم الالتحاق بهذه المدارس والتعلم فيها والإفادة منها. فخرجت

المدارس عن الطوق التعليمي القديم التقليدي الجامد إلى مجال رحب من تفهم العلم وأهميته في الرقي والتقدم.

3 - جربت الدولة العثمانية إدخال إصلاحات تنظيمية وإدارية فيها الكثير من روح العصر (في سنتي 1839 و1856 وسواهما). وقد وضع الكثير منها موضع التنفيذ لكنه جاء متأخراً بعض الشيء.

4 - كان الشعور بالاستبداد الشخصي للسلطان وبطانته والانفراد بالسلطة قوياً في قلب العاصمة. وأصبحت الدعوة إلى وضع دستور يقيد تصرف ولي الأمر واسعة عريضة. وانتهت إلى وضع دستور (سمي مشروطية) سنة 1876 وهي السنة التي اعتلى فيها عبد الحميد سدة السلطنة. ومع أن السلطان أوقف العمل بالدستور وأعاد أعضاء المبعوثان (البرلمان) إلى بلادهم وأرسل البعض إلى المنافي، وحكم حكماً منفرداً عاتياً حتى سنة 1908 لما اضطر إلى إعادة العمل بالدستور. (جرب عبد الحميد الانقلاب ثانية فخلع سنة 1909)؛ مع ذلك فإن فكرة تقيد سلطة ولي الأمر ظلت تعمل في نفوس القوم وعقولهم، لا في تركية وحدها، بل الولايات العربية أيضاً.

5 - إذا كانت الثورة الفرنسية، باعتبارها ثورة ضد الحكم التسلطي الفرنسي، قد عرفت آثارها في المنطقة، فإن الثورة الأميركية ضد التاج البريطاني التي أدت إلى استقلال تام معترف به في مطلع القرن التاسع عشر وصلت آراؤها إلى بلاد الشام عامة، ولبنان على وجه خاص، عن طريق المرسلين والمعلمين وأساتذة الكلية السورية الإنجيلية خاصة، إلى عدد محدود لكنه كان له أثر. ومن هنا فإننا نجد دعوة إلى الثورة ضد الاستبداد والاستئثار بالسلطة قوية عارمة. وهذا يدفعنا إلى التذكر بأن عدداً من أحرار الفكر من بلاد الشام هجر بلده إلى مصر حيث كان ثمة جو للحرية أوسع. وهؤلاء هم الذين عبروا عن آرائهم بحرية.

والذي نخلص إليه من هذا هو أن قلقاً فكرياً وثورة على الأوضاع عامة ونظرة جديدة إلى العلاقة بين الحاكم والمحكوم ونظرة جديدة إلى طبيعة

المجتمع وما يجب أن يحكمه وينظمه كانت تتفاعل في نفوس أهل الفكر والزعماء السياسيين منهم والدينيين أيضاً.

وحري بالذكر هنا أن الآراء الليبرالية التي دخلت ميدان الفكر لم تلق استجابة واسعة، فقاومها التقليديون من المصلحين واعتبروها عناصر هدامة. ولعل أفضل مثل على ذلك الخصومة العنيفة التي دارت بين الشيخ محمد عبده وفرح أنطون في السنوات الأولى من القرن العشرين.

(3)

وعلى كل فإن جماع هذه الأمور التي أشرنا إليها اقتضت على فئة محدودة في المجتمع. ذلك أن سبيل التعبير عنها اقتصر على الكتابة، وكان عدد القراء محدوداً. ومع أن بعض الجمعيات أو المنظمات (مثل الجمعية العلمية السورية في بيروت) كانت تعقد اجتماعات وتدعو إلى محاضرات، فإن هذه كانت مقصورة على ما يمكن أن يسمى، ولو تجاوزاً، النخبة.

لكن المنطقة عرفت، في نصف القرن الذي حددنا لحديثنا، أموراً أخرى كان سبيل نشرها وانتشارها أوسع، خاصة لما تبناها رجال السياسة. فهؤلاء كان يهمهم أن تصل مقولاتهم إلى الجماهير تأييداً لهم، فلجأوا إلى الاجتماعات الكبيرة والشعبية أحياناً. ولنسرع إلى القول بأن هذا أعطاها قاعدة أوسع، لكن هذا أدى بها إلى أن يكون فهمها أرق وأضعف.

هذا الوقت كان وقت ظهور حركات ونزعات قومية ووطنية كانت لها صفاتها الخاصة. وهذا ما نريد أن نتقل إليه الآن.

في مقدمة هذه كانت القومية الطورانية (التركية). في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت حركة قوية نشطة لإحياء اللغة التركية وتطويرها، تزعمها ثلاثة من كتّاب الأتراك الكبار هم شنّاحي أفندي ونامق كمال وضيا باشا. فقد عمل هؤلاء على ترجمة عيون الأدب الغربي إليها، ونشروا هذه الترجمات بين المتعلمين، وجددوا في معاني الكلمات مثل كلمة «وَطَن» التي

كانت تعني «البيت» فأصبحت تدل على «البلاد»، كما أن كلمة «مِلّت» التي كان يفهم منها جماعة دينية أصبح مدلولها «الشعب».

وهذا الإحياء والعناية بالتاريخ التركي القديم الطوراني تمثل في خالدة أديب. وقد حضرت خالدة أديب اجتماعاً «طورانياً» وسمعت فيه ما ألقى من الخطب، مكثت عقيب ذلك تقول: «بينما كنت أصغي إلى تلك الخطب شعرت أن روحي تحركت في أعماق نفسي وأدركت إلى أي حد تتأصل أمانتي تركية الحديثة في وجود هؤلاء الأجداد. فقد وصلت إلى نغمات موسيقية منبعثة من دمنال الطوراني وحملتني معها، حتى أنني إلى هذه الساعة أشعر كأنني أسمعها. وقد وثقت عندها أنه يتوجب علينا أن ننحدر إلى ينابيع الحياة لنحصل على الروح التي يجب أن نبثها في شعبنا، لنتمكن من الوصول به إلى الأهداف السياسية التي نرمي إليها». أما ضياء كوك ألب قد كتب في أشعاره: «إن الشعور الذي يجري في دمي هو صدى ماضي، وإن أعمال أسلافي المجيدة أتحمس آثارها في الدم الذي يجري في عروقي ويملأ قلبي، بعد أن كنت أقرأها في صفحات جافة مغبرة صفراء من كتب التاريخ. أن أثلاً وجُنْكُزخان، وهما معجزة جنسي [الطوراني] ومظهر عظمتها، ليسا دون الاسكندر وقيصر. وأغزخان لا يزال حياً في قلبي وفي دمي بكل عظمتها وبهائه. هو الذي ينشر السرور في قلبي ويحدوني إلى أن أصرخ بحماس قائلاً - ليست بلاد الأتراك تركية أو تركستان فحسب، ولكنها طوران الخالدة».

مثل هذه الآراء كانت تتزعمها حركة «تركية الفتاة»، التي تعود بداءاتها إلى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. وفي مطلع القرن العشرين وبعد إعادة الدستور (1908) ثم خلع السلطان عبد الحميد (1909) أصبحت القومية التركية الدعوة الرسمية للدولة التي أصبح يسيطر على أمورها رجال «الاتحاد والترقي». وأصبحت حتى فكرة تترك العرب جزءاً من البرنامج الرسمي للتعليم في المدارس الرسمية بحيث أن التعليم في هذه المدارس كان باللغة التركية، حتى اللغة العربية نفسها. وقد عرفت أنا في صغري بعض الذين تلقوا التعليم في مثل هذه المدارس في فلسطين حيث كان درس الصرف العربي

يدرّس باللغة التركية.

هذه الحركة القومية التركية تلقفها مصطفى كمال، بعد انتصاره على اليونان (1923) وأضاف إليها مبدأ العلمانية، واتخذها أساساً للحياة التركية الوطنية والسياسية. ولم يسمح بعدها لأي شخص مقيم في تركيا أن يشير إلى عرقه الأصلي - كردي أو أرمني مثلاً. الجميع أتراك واللغة التركية هي لغة الأدب والتاريخ والسياسة وكل ما له صلة بذلك.

(4)

كانت النتيجة الحتمية لإحياء الأدب العربي والاهتمام بتاريخ العرب والاتصال بالغرب أن انتشر وعي بالعروبة في بلاد الشام بشكل عام. ذلك أن بيروت ودمشق وحلب وطرابلس والقدس كانت قد عرفت المدرسة الخاصة والأجنبية منذ القرن التاسع عشر. وكانت ثمة نهضة ثقافية على درجة لا يستهان بها. (راجع مثلاً عائشة عبد القادر الدباغ - الحركة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر - بيروت 1972 ومحمد كرد علي - خطط الشام، ج 3، المئة صفحة الأخيرة، والجزء السادس، دمشق 1925).

لذلك لم يكن غريباً أنه لما أفاق بعض أهل بيروت ورأوا قصيدة ملصقة على بعض الجدران سنة 1883 مطلعها:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طما الخطب حتى غاصت الركب

(الإبراهيم اليازجي)

أن يتناقلوها وينسخوها ويوزعوها ويتغنوا بها. ففكرة العروبة والقومية العربية كانت موجودة، وإن كانت أقل عمقاً من القومية التركية.

في سنة 1908، سنة إعادة الدستور، احتفل الأمراء في كثير من المدن الشامية بذلك، وأنشأ بعض الطلبة العرب جمعية «العربية الفتاة» (في استنبول) على غرار «تركية الفتاة».

لكن تولي رجال الاتحاد والترقي قضى على الآمال. فكان أن انتقلت العربية الفتاة إلى باريس على أيدي طلاب عرب كانوا يتعلمون في استانبول وغادروها إلى باريس. ثم أقيمت لها فروع في مدن عديدة، كما نشأت جمعيات عربية أخرى في المدن العربية.

وكان من الطبيعي أن يقوى هذا الشعور العربي في مقابلة الشعور التركي القومي. ولم تكن هذه الجمعيات، في الغالب الأعم، تدعو إلى الانفصال عن الامبراطورية العثمانية على ما يبدو من قرارات «المؤتمر العربي الأول» الذي عقد في باريس (1913).

لكن ثورة العرب الكبرى، التي قادها الشريف حسين سنة 1916 غيرت الأمر بعض الشيء، وقامت ثمة دعوة إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية.

وانتهت الحرب العالمية الأولى (1918) ووقعت بلاد الشام تحت النفوذين البريطاني والفرنسي. فأصبحت القومية العربية دعوة قوية تؤيد الحركات الاستقلالية وضمت إليها فكرة «الوحدة العربية». هذا ما نشأنا عليه ونحن في مطلع الشباب الأول. لكن هذه قصة طويلة، لذلك نكتفي بما تم إلى أواسط العقد الثالث من القرن العشرين.

(5)

في سنة 1882 احتلت بريطانية مصر. فكان من الطبيعي أن تتجه مصر في حركاتها السياسية اتجاهاً خاصاً أساسه التخلص من الحكم البريطاني. ومن ثم فقد كانت الحركة هناك «مصرية وطنية». ويمثل هذا الاتجاه خير تمثيل مصطفى كامل الذي بدأ دعوته إلى استقلال مصر وهو بعد طالب في كلية الحقوق في القاهرة. وازداد نشاطاً لما تخرج منها سنة 1895. كان يرى أن تاريخ مصر المجيد هو الباعث على ما يمكن أن تحققه الأجيال الطالعة من خير للبلد. وقد كان مصطفى كامل، على ما قالت مناصرته الفرنسية جوليت آدم، «مهندس صرح الوطنية المصرية». وفي سنة 1907 أسس مصطفى كامل «الحزب الوطني» وجماعات أخرى للدعوة لأفكاره الوطنية. ومع أن مصطفى

كامل توفي سنة 1908، فإن الحزب الوطني استمر يدعو إلى استقلال مصر واستعادة مجدها. وكان مصطفى كامل يدعو إلى عودة مصر إلى السيادة العثمانية في سبيل التخلص من حكم بريطانية.

ولما قامت الثورة المصرية سنة 1919، وتولى سعد زغلول والوفد برئاسته الكفاح من أجل الاستقلال ظلت الدعوة مصرية، ولم تكن عربية قومية. صحيح أنه كان ثمة من يدعو إلى القومية العربية من مصر، لكن هؤلاء الدعاة كانوا أصلاً من بلاد الشام - مثل الكواكبي ورشيد رضا وسواهما كثيرون.

(6)

الدعوات والاتجاهات التي أشرنا إليها حتى الآن كان العنصر الأساسي فيها إما قومياً (تركياً أو عربياً) أو وطنياً مصرية. لكن كان هناك دعوة إلى الجامعة العثمانية. هذه كانت قاعدتها أن تظل جميع الأقطار تحت حزام الدولة العثمانية - فلا دعوة إلى الاستقلال أو الانفصال. والفكرة الأساسية هي أن تسمح السلطات إلى تطور مزدوج المنحى. فالعرب يسمح لهم بالنمو والتطور على أنهم عرب لهم تاريخهم وأدبهم ومجتمعهم ولغتهم التي تعبر عن خلجات ضميرهم وآمالهم وأمانهم، فيما يسير الأتراك في خط مواز فيطوروا حياتهم على أسس تاريخهم القومي وأدبهم ولغتهم. أما الإدارة فتظل عثمانية المظلة، لكن مزدوجة التفاصيل بحيث يكون ثمة نمو وتطور مزدوجان متوازنان، فيكون بذلك إثراء لهذه الجماعة الكبيرة. ولعل الجمعية الإصلاحية التي قامت سنة 1912 تمثل في برنامجها (العربي الأصل) هذه الناحية خير تمثيل.

إن تطور العرب تاريخياً أصلاً، وتطور الشعوب التي كانت قد التصقت بهذا التاريخ عبر قرون طويلة، ملتحم بالإسلام. وقد كان بين المحاولات التي قامت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر دعوات إصلاحية إسلامية، كان لبعضها دور سياسي كبير مثل الحركة الوهابية، وكان لسواها دور

اجتماعي كبير أيضاً. ويمكن أن نذكر محاولات الشيخ محمد عبده نموذجاً على ذلك. وحتى بعض دعاة القومية العربية كان في دعوتهم، بطبيعة الحال، أثر إسلامي قبل عبد الرحمن الكواكبي.

إلا أن الأمر تعمق أكثر من ذلك لما خشي بعض الدعاة المسلمين لا من الاستعمار الغربي فحسب، بل من حضارة الغرب التي رأوا فيها خطراً على الإسلام والمسلمين. مثل هذه الدعوات قامت في بقاع مختلفة في العالم الإسلامي مثل الهند وأفريقية. وكانت مصر، وهي بنت الأزهر، من المناطق التي تركزت فيها الحركة تنظيمياً فيما بعد بقيام «الإخوان المسلمون» على يد حسن البنا (1928) في مصر. ومن هناك، في رأينا، انطلقت الحركات الإسلامية المختلفة إما تبعاً للحركة الأصلية أو تماثلاً لها وعلى خطاها.

(7)

جربنا أن نضع إصبعنا، بقدر الإمكان، على الآراء والدعوات والأفكار والحركات التي كان الجزء الشرقي من البحر المتوسط يزخر بها خلال نصف القرن الممتد من عبد الحميد إلى مصطفى كمال. ثمة حركات قومية أخرى لم نتعرض لها كي لا يتشعب الموضوع على القارئ، مثل الحركة الكردية والقومية الأرمنية. ونحن لا ننكر وجودهما، لكن يكفيننا خمسة اتجاهات رئيسية.

وهنا يعرض لنا سؤال: ما الذي أصاب هذه العقود التي تلت النقطة التي توقفت عندها؟

سؤال مهم، لكن الإجابة عنه تقتضي حديثاً يمكن أن يشغل ثلاثة أمثال أو أكثر مما شغلته هذه العجالة.

إلا أن ذلك لا يمنع من إبداء ملاحظات سريعة.

1 - القومية التركية بعلمانياتها لا تزال تعاني أزمة.

- 2 - القومية العربية (ومعها الوحدة العربية) بعد توهجها لفترة ما، يبدو أنها خبت ومكانها الوحيد هو قلوب وصدور أعداء لا تزال تؤمن بها.
 - 3 - الوطنية المصرية كانت حائرة بعض الوقت بين أن تظل على حالها أو أن تنضم إلى لواء العروبة. (في الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين قامت في مصر دعوة فرعونية).
 - 4 - الجامعة العثمانية انتهت بزوال مبرر الدعوة إليها.
 - 5 - الدعوة الإسلامية أصبح لها دعاة ونفوذ وتنظيمات متعددة في أنحاء العالم العربي. ويمثل أكثر هذه المنظمات نفوذاً المنظمات الأصولية.
- والمستقبل يعتمد على الوعي العام وإيلاء التربية المدرسية والجامعية الاهتمام الكافي وتنازل «القطريات» عن «حب النفس» في سبيل النفع العام وقيام دول المؤسسات ودفع الحرية - الفكرية والاجتماعية والسياسية - إلى الأمام، بدل «دفشها» إلى الخلف.